رجـــل (نـــادر) !!

أشرف عبدالمنعم

هم صبية لا يتجاوز عددهم ستة عشر، ولا تتجاوز أعمارهم الستة عشر، ساقتهم ظروف الحرب فى سوريا إلى الهروب تحت نير قصف وتنكيل ماعاد أحد يفهم يقينا هو ضد من أو مع من؟ ولكنها الحروب حينما تضع أوزارها فلاترحم ولا تذر.

الصبية هربوا، وتجاوزوا حدود بلدهم إلى دولة أخرى، بل قل إلى دول أخرى، فوق أسطح مركبات رثة تارة، وسيرا على الأقدام تارات، أكاد أسمع وقع أقدامهم المتعبة فوق مخلفات الخريف من أوراق أشجار وأغصان خانت أشجارها فهوت؛ تفترش الأرض بمحاذاة قضبان سكك حديدية باردة ببرودة الطقس من حولها؛ تزين مسالك العابرين إلى أجواء أوروبا قاسية البرودة؛ يتخافتون بينهم خشية أن يسمعهم عساكر الدرك المنتشرون فى كل مكان كقطعان الذئاب يبحثون بنهم عن هؤلاء الفرائس ليمنعوهم من النفاذ إلى عقر بلدانهم (الآمنة)؛ وضباب الزراعات يفترش السماء المحيطة من كل اتجاه؛ يخفى مايخفيه من معالم بيوتات ساكنة متناثرة هنا وهناك؛ لايبدد صمت المكان سوى سارينة قطار قادم عن بعد تدوى بأقوى صوت؛ وجسم القطار الأصم يخترق ضوؤه الضباب فيبدده للحظات فما يلبث أن يعم؛ وكذا نباح كلاب مالبثوا يشتمون رائحة أغراب حتى انخرطوا فى النباح؛ ولكنهم ليسوا أغرابا عن المنطقة، وإنما عن الوطن بأسره؛ يكاد بخار الماء المتصاعد من أفواههم حين التهامس أن يفضح أماكنهم فى جوف ليل طويل شديد البرودة يعرفه الأوروبيون جيدا؛ ويختبئون منه وراء الحيطان حول المدافئ التى تقتات على (بترول الخليج)؛ ولكنه ليس للأعراب عهد به!

كل ليلة تشبه كل ليلة، وكل يوم يشبه كل يوم، ولا يزال الصبية وآخرون كثر معهم يلتحفون الفضاء، ويطوون صفحات طريق طويل نحو مجهول ليس أمامهم بد من أن يبلغوه أيا كانت نتائجه؛ ذلك لأن البديل هو الموت سواء بالعودة إلى الوطن، أو بالتوقف عن المسير!

وتمر الأيام والأسابيع وربما الشهور، فيلفظ من يلفظ أنفاسه، ويستمر من يستمر، ولا يزال هؤلاء الصبية يزحفون باتجاه بصيص النور صوب القبلة التى ارتضونها - ألمانيا؛ تلك الدولة التى أبدت استعدادا لاستقبالهم (إن هم نجحوا فى الوصول إلى أراضيها)!

ولسوء طالع الألمان، وصل الصبية ومن تبقى معهم من أحياء إلى ألمانيا، واستقبلتهم السلطات هناك بحذر وكثير من ترقب، ثم لم تجد بدا من توزيعهم على معسكرات تم تخصيصها للاجئين من أمثالهم ليلحقوا بركب أمم من قبلهم سبقتهم إلى مثل هذا المصير!

ولأن الحرب فى سوريا قد طال أمدها، ولم تعد هناك بادرة أمل فى إسدال الستار على هذه المأساة الإنسانية، فقد قررت السلطات الألمانية أن تتخذ شبه خطوات نحو إخراط هؤلاء غير المرغوب فيهم فى الحياة الألمانية، ولو على سبيل ذر الرماد فى العيون، فقررت توزيعهم (بقدر) على عدد من المصانع الألمانية للاستفادة منهم كأيد عاملة، وجاء توزيع هؤلاء الصبية الستة عشر من نصيب مصنع لأجهزة الأمن الصناعي داخل إحدى القرى الألمانية... فذهبوا !

ذهب الصبية وملء قلوبهم خوف من غد مجهول فى ظل ظروف عمل مجهولة فى مجتمع مجهول؛ يلح على خيالهم شبح (امتهان) من البديهى أن يلقاه الغرباء فى مثل هذه الظروف، خاصة أن (سمعة المسلمين) تسبقهم أينما ذهبوا؛ وأن الكل يعلم أن ألمانيا الحالية يحكمها حزب قالت مستشارته أنجيلا ميركل مرارا أنه لن يتهاون بشأن (مسيحية ألمانيا) فى مواجهة مد إسلامى غير مرغوب فيه داخل أوروبا!

ولكن وكما قال الإمام على بن أبى طالب، كرم الله وجهه: ولاتيأس فإن اليأس كفر، لعل الله يغنى من قليل.. وإن العسر يستتبعه يسر، وقول الله أصدق كل قيل!!

فقد فوجئ الصبية فى أول أيام دورتهم التدريبية بالمصنع بمكان خصصه (صاحب المصنع) لهم كزاوية لإقامة صلاتهم؛ ثم فوجئوا بطباخ تركى (مسلم) خصصه (صاحب المصنع) ليطهو لهم وجباتهم الغذائية وفقا لشروط الشريعة الإسلامية؛ ثم فوجئوا بإصدار(الرجل) أوامر صارمة لمرءوسيه بعدم استخدام هؤلاء الصبية فى أعمال بدنية؛ وإنما الاستفادة منهم فى أعمال فنية فقط وتدريبهم عليها وفق برنامج ممنهج؛ وذلك خشية أن يمتهنوا أو يستهان بهم أو(يهانوا)؛ ثم فوجئوا بتخصيص مصروف لهم يصرف من خزينة المصنع يوميا؛ بل و فوجئوا بتخصيص أوتوبيس فاخر خاص بهم ينقلهم من معسكر اللاجئين إلى المصنع والعكس!

وأكاد أرى هؤلاء السوريين سجدا على الأرض شكرا لله على تبسم السماء لهم أخيرا بعد طول عناء تكبدوه دون ذنب أو جريرة، ولكنهم لا يعلمون سر هذا التبسم؟ فالسر هو أن صاحب هذا المصنع تحديدا هو رجل أعمال مصرى (مسيحي)، الفرق بينه وبين أصحاب المصانع الأخرى التى تم توزيع اللاجئين عليها هو أنه ملم بثقافة الآخر بحكم كونه تربى وعاش - ولا يزال - فى بلد ثقافته الغالبة إسلامية - مصر؛ ومن ثم فهو مطلع على ثقافة الآخر بكل تفاصيلها وتحفظاتها و(مخاوفها)، ليس من معلومة سطحية فى ثنايا كتاب هنا أو نشرة أخبار عابرة هناك، وإنما عن ممارسة وخبرة عملية - وهذا هو مربط الفرس؛ تلك الفجوة الثقافية الرهيبة بين الغرب وبيننا ، بل وبين (الأعراب) والمصريين بحكم تركيبة سكانية ثقافية تختص بها مصر وحدها دونا عن سائر بلدان المنطقة إن لم يكن العالم بأسره !

إنه الدكتور نادر رياض رجل الصناعة ؛ ذلك الرجل الذى له من اسمه نصيب كبير فهو (نادر) بحق، ونموذج نابض (لجوهر) الإنسان المسيحى الحق الذى (عرفته مصر) بطول تاريخها و(لن تقبل بغيره) جارا، وزميل دراسة، وزميل جندية، وزميل عمل... شخص متسامح يمتلك قدرة هائلة على استيعاب الآخر ومساعدته دوما.. والصلاة من أجله.

ashrafnhn@hotmail.com